سهيل إدريس

كـــــــريم مـــــــــروة*

سـهيل إدريس ومجلة الآداب والمعجم الذي يحمل اسم **المنهل** ودار الآداب هي أسماء متعددة، لكنها تشير إلى/ وتعبّر عن/ شخصية أساسية واحدة هي شخصية سهيل إدريس. ولعلّ الفصلَ بين أيٍّ من هذه الأسماء والاسم الأساسي فيها سيكون فصلاً تعسفياً. إلاّ أنّ سهيل إدريس هو أديبٌ في الدرجة الأولى، أيْ روائيٌ، وكاتبُ قصة، وناقدٌ أدبيّ. وهو واحدٌ من أكثر الذين تَرجموا عن الفرنسية رواياتٍ ومسرحياتٍ وسيرًا ذاتيةً وكُتبَ نقدٍ لكبار الكتّاب، وفي مقدّمتهم جان بول سارتر. لكنّ الذين يعرفون سهيل إدريس معرفةً كاملةً وشاملةً يروْن إليه أكثرَ من روائيّ وكاتب قصة. إذ هو توقّف عن الكتابة في هذا الجنس الأدبي منذ زمن طويل، وتفرّغ للعمل الثقافي: نشاطًا متعدّدًا، ومنابرَ متعددةً، وموقعًا في هيئات ثقافية متعددة. ولذلك فإنّ أهل الثقافة يروْن إليه ـ قبل صفته التي يحبّها كمبدعِ روايةٍ وقصةٍ وكمترجم لأعمالٍ أدبيةٍ كبيرة ـ كمنشئٍ لواحدةٍ مَن أهمّ المجلات الأدبية العربية (مجلة الآداب)، وكمؤسّسٍ لدار نشرٍ هي واحدة من أهمّ دُور النشر العربية (دار الآداب)، وكصاحب معجم (**المنهل الفرنسي ـ العربي**) هو من أهمّ القواميس.** وهي، لعمري، منجزاتٌ كبيرةٌ تعطي سهيل إدريس مكانتَه المتميّزةَ في الحياة الأدبية العربية.

ورغم أنني لا أزعم لنفسي القدرةَ والكفاءةَ والمهمةَ التي هي للنقّاد الأدبيين، إلا أنني، كقارئٍ وكباحثٍ عن المعرفة وكمثقفٍ بالمعنى العامّ للكلمة، أسمح لنفسي بأن أساهم في تقديم قراءتي لسهيل إدريس ولسيرته الأدبية والثقافية عمومًا، مستندًا في ذلك إلى معرفتي به التي تمتدّ إلى خمسة وخمسين عامًا على وجه التحديد. وكانت بداية معرفتي به في الجامعة اللبنانية في العام الدراسي ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣، عندما كنتُ طالبًا في فرع الآداب في دار المعلّمين العليا، وكان هو أستاذًا للأدب المقارن فيها، إلى جانب مجموعةٍ من كبار أساتذة الأدب، الذين كنتُ مع زملائي الطلاّب نتعلّم منه ومنهم ومن إرشاداتهم ومن ثقافتهم كيف نشقّ طريقَنا إلى الأدب. إنهم، إلى جانب سهيل إدريس، جبّور عبد النّور وأنطون غطّاس كرم وبطرس البستاني وبهيج عثمان. وكنّا، نحن طلاّبَ فرع الأدب العربي، في معظمنا، قادمين إلى دار المعلّمين العليا من التدريس في الصفوف الابتدائية والمتوسّطة، بعد حصولنا على الشهادة الثانوية التي تؤهّلنا لدخول الجامعة. لذلك لم نكن طلاّباً عاديين؛ أيْ إننا كنا قد بدأنا نمارس منذ سنّ مبكّرة علاقتَنا المعقّدة بالحياة وبصعوباتها. وكنّا قد بدأنا، منذ وقتٍ مبكّرٍ أيضًا، نقرأ باللغتين العربية والفرنسية الأعمالَ الأدبيةَ الكبرى، القديمةَ والحديثة، ونتابع ما يُنشر من أبحاث أدبية في مجلات **الهلال** و**الرسالة** و**الثقافة** و**المكشوف** و**الأديب** و**الطريق** و**الكاتب المصري**، وكذلك في المجلاّت والصحف اليومية والأسبوعية في لبنان وفي مصر، على وجه التحديد. وكنا نتابع بشغفٍ السجالاتِ التي كانت تجري بين التيّارات الأدبية والفكرية المختلفة حول شتّى القضايا الأدبية، والقضايا الثقافية في شكل عامّ. ولذلك كان من الصعب على أساتذتنا أن يَفْرضوا علينا آراءهم من دون نقاش. وكان عليهم، بسبب ذلك، أن يأتوا إلى طلاّبهم في كامل الاستعداد للنقاش. لكلّ هذه الأسباب مجتمعةً، كانت الدراسة في تلك الظروف عظيمةَ المتعة والفائدة بالنسبة إلينا، وإلى تكوّن شخصياتنا وتعمُّق معارفنا واتّساعها. وبهذا المعنى فإنّ ذلك العام الدراسي اليتيم في حياتي هو من أجمل ذكرياتي.

أَذْكر في هذا السياق أنّ أستاذنا سهيل إدريس طلب منّا ذاتَ يوم أن يقدِّم كلٌّ منا بحثًا في الأدب المقارن، استنادًا إلى ما كان بدأ يعرفه عن قراءاتنا باللغتين العربية والفرنسية. يومَها قدّمتُ بحثًا تناولتُ فيه نمطَ كتابة القصة عند كلٍّ من الأديب المصري محمود تيمور والأديب الفرنسي غي دوماپاسان. وكنتُ قد قرأتُ لكليْهما عددًا كبيرًا من القصص القصيرة. تحفّظَ أستاذي سهيل إدريس عن بحثي وعن هذا الاختيار في الأدب المقارن. لكنني كنتُ مقتنعًا باختياري. ولم أعرفْ بالضبط إذا كان في تحفّظه يومذاك يريد امتحانَ معرفتي بالموضوع وامتحانَ مقدرتي على الدفاع عن خياري، أمْ أنّ تحفّظه كان لسببٍ آخر. ولم تتَحْ لي فرصةُ العودة إلى هذا الموضوع مع أستاذي بعد أن نشأتْ بيننا صداقةٌ حميمةٌ

---

* ـ كاتب من لبنان.

** ـ اشترك إدريس مع جبّور عبد النور في تأليف **المنهل الفرنسي ـ العربي** قبل أن يستقلّ به إدريس منذ عقود. وقريبًا يصدر **المنهل العربي ـ الفرنسي** من تأليف د. سهيل إدريس وبمشاركة الشهيد د. صبحي الصالح. كما يصدر خلال أعوام قليلة **المنهل العربي ـ العربي** من تأليف د. سهيل إدريس ورئيس تحرير الآداب، وبمشاركة د. صبحي الصالح. (الآداب)

ابتداءً من أواخر ستينيات القرن الماضي حتى الأعوام الأخيرة من حياته، رغم ندرة لقاءاتي به بسبب مرضه، الذي قاده قسرًا إلى مغادرة الحياة قبل الأوان. إلاّ أنّ صديقي سهيل إدريس فاجأني بعد أربعين عامًا من ذلك التاريخ (١٩٩٣) عندما كنا نسافر معًا إلى تونس، كلٌّ منا في مهمّةٍ معيّنة، حين أبلغني، وأنا أذكّره باختلافي معه حول بحثي المشار إليه في الأدب المقارن، أنه قادمٌ إلى تونس للمشاركة في مؤتمر حول الأدب المقارن، وأنّ بحثه يتناول كلاً من محمود تيمور وغي دوموپاسان. وكان ذلك، بالنسبة إليّ، أمرًا مثيرًا لدهشتي ولسعادتي. وكان، في الوقت عينه، مثارَ تقديرٍ لأستاذي الذي أراد، ولو بعد أربعين عامًا، أن يقدِّم لي تقديرَه لجهدي البحثي المبكّر في الأدب المقارن، من دون أن يَخْلق عندي غرورًا مبكّرًا. وكان ذلك تفسيرَه المتأخّر لما بدا لي، في ذلك الحين، تحفّظًا منه عن بحثي المشار إليه. كنّا في ذلك التاريخ قد أصبحنا صديقين حميمين. وكنتُ من المدمنين على قراءة مجلة الآداب، ومن المدمنين على اقتناء الكتب الصادرة عن دار الآداب، ومن المتابعين باهتمامٍ لنشاط صديقي سهيل إدريس في اتحاد الكتّاب اللبنانيين وفي مجمل نشاطه في ميدان الثقافة على الصعيدين اللبناني والعربي.

❖ ❖ ❖

وُلد سهيل إدريس عامَ ١٩٢٥ في بيروت من أبٍ يقال إنه مغربيُّ الأجداد، ومن أمٍّ تنتمي إلى أسرةٍ بيروتيةٍ عريقة. كان الأب إمامَ مسجد، لكنه كان يمتهن التجارة أيضًا. تلقّى سهيل دراسته الابتدائية في كلّية المقاصد الإسلامية في بيروت، التي كان يديرها الإعلاميُّ والسياسيُّ اللبنانيُّ المعروف عبد الله المشنوق. في عام ١٩٣٦ اختاره مديرُ الكلّية مع عدد من زملائه الطلاّب للالتحاق بكلّية «فاروق الشرعية» (نسبةً إلى الملك فاروق الذي كان يُنْفق على الكلّية). أصبح سهيل في هذا المعهد الديني شيخًا، وارتدى الزيَّ الديني طوال خمسة أعوام، لكنه تخلّى عنه بعد تخرّجه عام ١٩٤٠. أنهى دراسته الثانوية سنة ١٩٤٢، والتحق في العام التالي بمعهد الحقوق التابع لجامعة القدّيس يوسف اليسوعية، لكنه لم ينجحْ في دراسته بسبب اضطراره إلى العمل لكسب رزقه نظرًا إلى تدهور الوضع الاقتصادي للعائلة. فتخلّى عن دراسة الحقوق، وبدأ في مزاولة العمل الصحفي في جريدتيْ **بيروت** و**بيروت المساء**، ثم في مجلّتي **الصيّاد** و**الجديد**، واستمرّ يعمل في الصحافة من عام ١٩٤٣ حتى عام ١٩٤٩. وكان في تلك الفترة ينمّي مواهبه الأدبية، وبدأ ينشر في المجلات بعضَ أبحاثه الأدبية وقصصه القصيرة، أولاً في مجلّتَي **المكشوف** و**الأديب** اللبنانيتين، ثمّ في مجلتَي **الصباح** و**النقّاد** السوريتين.

ترك العملَ في الصحافة في عام ١٩٤٩ وسافر إلى باريس للإعداد للدكتوراه في الأدب، التي حصل عليها سنة ١٩٥٢ (وكان موضوعُها «القصة العربية الحديثة والتأثيرات الأجنبية فيها من عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٥٠»). أنشأ بعد عودته إلى بيروت مجلة الآداب سنة ١٩٥٣ بالاشتراك مع صديقيْه بهيج عثمان ومنير البعلبكي صاحبيْ دار العلم للملايين. وفي العام ذاته عُيِّن أستاذًا للأدب العربي الحديث في الجامعة اللبنانية التي كانت قد أُنشئتْ قبل سنتين. كما عُيِّن أستاذًا للترجمة والتعريب والنقد في كلّية المقاصد الإسلامية في بيروت. أنشأ مع صديقيْه رئيف خوري وحسين مروّة جمعيةَ «القلم المستقلّ» التي انشقّت عن جمعية «أهل القلم» بسبب خلافات. وفي عام ١٩٥٦ استقلّ بمجلة الآداب عن شريكيْه السابقيْن فيها. وكان أبرزُ نشاطه الثقافي في تلك الفترة يتمّ من موقعه كمسؤولٍ عن العمل الثقافي في جمعية المقاصد الإسلامية، إذ دعا عددًا من المثقفين العرب لإلقاء محاضراتٍ ومناظراتٍ في الجمعية. وكان من أهمّ المناظرات التي نظّمها تلك التي جرت بين طه حسين ورئيف خوري: الأول يدعو إلى الأدب من أجل الأدب، أيْ إلى تحرير الأدب من أية وظيفة سياسية أو اجتماعية؛ والثاني يؤكّد أنّ الأدب مسؤولٌ وأنّ وظيفته هي في خدمة الإنسان والحياة.

في عام ١٩٥٦ أنشأ سهيل دارَ الآداب للنشر بالاشتراك مع صديقه الشاعر نزار قبّاني، لكنّ قبّاني اضطرّ سنة ١٩٦١ إلى الاستقالة من الدار بسبب تعارض ذلك مع وظيفته كدبلوماسيّ سوريّ. انتُخب سهيل عام ١٩٦٧ أمينًا عامّاً مساعداً لاتّحاد الأدباء العرب، وأمينًا للّجنة اللبنانية لكتّاب آسيا وأفريقيا. في السنة التالية شارك مع قسطنطين زريق ومنير البعلبكي وأدونيس وجوزيف مغيزل في تأسيس «اتحاد الكتّاب اللبنانيين،» وانتُخب أمينًا عامّاً له ثلاث مرات في فترات مختلفة.

❖ ❖ ❖

هذه هي، باختصار، سيرةُ هذا الأديب اللبناني الكبير سهيل إدريس. وهي تشير في محطّاتها الرئيسة إلى شغفه بالنشاط الثقافي العامّ، وإلى أهمية المنابر الثقافية التي أنشأها، وحوّلها بجهده الخاصّ إلى مراكز مهمة لالتقاء المثقفين، وإلى مراكز مهمّة لنشر إبداعاتهم في ميادينها المختلفة. ويُجْمع المثقفون العرب، والأدباءُ منهم على وجه الخصوص، على تقييم الدور الكبير الذي لعبه ولعبتْه مجلةُ الآداب بإشرافه منذ تأسيسها في نشر نتاج الأدباء العرب من شتّى البلدان، وفي السجالات المهمّة التي تمت على صفحاتها وأغنت الثقافةَ العربية. صحيح أنها لم تكن تقوم وحدها بهذا الدور: فقد سبقتْها إليه كلٌّ من مجلة **المكشوف** لمؤسّسها فؤاد حبيش، ومجلة **الأديب** لصاحبها ألبير أديب، ومجلة **الطريق** العريقة لمؤسّسها أنطوان ثابت، ومجلة **الثقافة الوطنية** التي وُلدتْ قبل عام واحد من صدور مجلة الآداب وكان يشرف على تحريرها حسين مروّة ومحمد دكروب. ثم نشأتْ في الستينات مجلةُ **شعر** التي كان يُشْرف على تحريرها الشاعر

يوسف الخال، وهي التي مهّدت الطريقَ للمدرسة الحديثة في الشعر، وكان من خرّيجيها الشعراء أدونيس وشوقي أبي شقرا وأنسي الحاج وآخرون. إلاّ أن موقع مجلة الآداب المتميّز هذا، بدور أساسيّ ومباشرٍ من سهيل إدريس، سرعان ما اكتمل بإنشاء دار الآداب للنشر، وهي التي أصبحتْ واحدةً من أهمّ دُور النشر العربية في نشر وتعميم إبداعات الأدباء العرب، وفي نشر وتعميم إبداعات الكتّاب من البلدان الأجنبية، التي اضطلع سهيل إدريس بترجمة العديد من روائعها.

❖ ❖ ❖

كان سهيل منذ نشأته قوميّاً عربيّاً، لكنه أنشأ في المرحلة التي أَعقبتْ هزيمةَ حزيران في عام ١٩٦٧ علاقةَ صداقةٍ سياسيةٍ مع أهل اليسار في لبنان، وبالأخصّ مع المثقفين الذين كانوا قريبين من الحزب الشيوعي، فكريّاً بل تنظيميّاً. واستطاع، بالاستناد إلى صداقاته هذه وإلى كفاءاته، أن يصل إلى المواقع الأساسية في المؤسّسات الثقافية اللبنانية والعربية، وكذلك في تلك التي كانت ذاتَ صلةٍ باتحاد كتّاب آسيا وأفريقيا. وكان انتخابُه ثلاثَ مراتٍ أمينًا عامّاً لاتّحاد الكتاب اللبنانيين واحدةً من ثمرات هذه العلاقة الحميمة مع المثقفين من أهل اليسار. ومعروفٌ أنّ اتّحاد الكتّاب اللبنانيين قد تميّز بنشاطٍ بارزٍ في الفترة التي كان فيها سهيل إدريس في موقع الأمانة العامة، لكنه لم يكن وحده صاحبَ هذا الدور: فجميعُ الذين انتُخبوا إلى هذا الموقع في الفترة التي سبقت اندلاعَ الحرب الأهلية، وكذلك في المرحلة الأولى من الحرب، لعبوا أدوارًا مميّزةً في تنشيط هذا الاتحاد، وفي تعميم دوره في الحياة الثقافية. إلاّ أن الحرب الأهلية والانقسامات السياسية التي ولّدتْها هذه الحربُ أضعفت الطابعَ التمثيلي الشمولي للاتحاد، فصار من الناحية العملية بمثابة اتّحادٍ لكتّاب الحركة الوطنية اللبنانية. وكانت تلك بدايةَ التراجع في دور هذا الاتحاد في الحياة الثقافية العامة في لبنان، وفي علاقاته مع سائر اتحادات الكتّاب العربية، علمًا بأنّ ما حصل في اتحاد الكتّاب اللبنانيين سرعان ما صار هو الظاهرة العامة في سائر اتحادات الكتّاب في جميع البلدان العربية.

❖ ❖ ❖

غير أنّ من الضروري في الحديث عن سهيل إدريس ألاّ ننسى المعجم الفرنسي–العربي الذي انخرط منذ وقت مبكّر في العمل على إنجازه مع صديقه الدكتور جبّور عبد النور. فـ **المنهل** هو عملٌ علميٌّ كبير. ويشترك مع سهيل إدريس في هذا العمل صديقُه منير البعلبكي، الذي أنشأ معجمًا آخر، ولكنه إنكليزي ـ عربي، باسم **المورد**. وكلٌّ من المعجميْن هو عملٌ علميّ يستكمل أعمالاً من هذا النوع لآخرين سبقوهما في أزمنة مختلفة. وكان الشيخ عبد الله العلايلي في عمله الضخم الذي يحمل اسم **المرجع** هو من بين أوائل الذين انخرطوا بجهدٍ علميّ كبير في هذا الميدان، لكنه لم يتصدَّ لقاموس أجنبي ـ عربي بل لمهمةٍ ذاتِ صلةٍ باللغة العربية وبفقهها وبقدرتها على التعامل مع كلّ منجزات العصر العلمية، ولو بصعوبة من النوع الذي يمكن التغلّبُ عليه، كما أثبت ذلك الشيخ العلايلي. وسِفْر العلايلي هو من أهمّ ما خلّفه هذا العلاّمةُ الكبير في اللغة والتاريخ والفقه الديني المستنير للمكتبة العربية ولثقافتنا العربية بعامة.

❖ ❖ ❖

من الطبيعي ونحن نتحدّث عن سهيل إدريس، هذا المثقف العربي الكبير، أن نتذكّر المرحلةَ الأولى التي تَقدَّمَ فيها روائيّاً. وإذ تُعتبر ثلاثيتُه (**الحيّ اللاتيني** و**الخندق الغميق** و**أصابعنا التي تحترق**) هي التي أدخلتْه في نادي الروائيين اللبنانيين، وهذا حقُّه وهو صحيح، إلا أنّ ثمة إجماعًا على أنّ دوره الثقافي الأساس إنما يتمثّل خصوصًا في المنابر الثقافية التي أسّسها، وفي المنابر الثقافية التي انتُخب فيها إلى الموقع الرئيس. ومعروف أنّ **الحيّ اللاتيني** هي روايتُه الأولى، وقد صدرتْ بعيْد عودته من باريس بلقب دكتور في الأدب الحديث، ويروي فيها تجاربَ حياته في ذلك الحيّ الذي كان ولا يزال يعجّ بالجامعات والمكتبات والمقاهي الثقافية. ومعروف أنّ جامعة السوربون تقع في هذا الحيّ الذي يتقاطع فيه شارعان من أهمّ الشوارع الثقافية في باريس: سان ميشال وسان جرمان. وفي مقاهي هذين الشارعين كان يوجد كبارُ كتّاب فرنسا، ومن بينهم جان بول سارتر، وكانت تجري اللقاءاتُ والسجالاتُ والتظاهراتُ الثقافية المشهورة والمشهودة. لكنّ الأساسي في رواية **الحيّ اللاتيني** هو مغامراتُ صاحبها كطالبٍ عربي في باريس، وكانت مغامراتُه النسائية من أهمّها (وهذا ما يحبّ شبابُ الشرق، ومنهم الشبابُ العرب، الإعرابَ عن سعادتهم بامتلاك المهارة فيه بإتقان). أما الرواية الثانية، **الخندق الغميق** (١٩٥٨)، فهي التي يروي فيها سهيل إدريس سيرةَ حياته الأولى قبل ذهابه إلى باريس، وأهمُّ ما فيها أنها تصف حيّاً عريقًا من أحياء بيروت، وفصولاً جميلةً من تقاليده الشعبية. ويستكمل إدريس في رواية **أصابعنا التي تحترق** سيرةَ المثقف العربي الشابّ، في تحوّلاته الفكرية والسياسية والثقافية، الشابّ المتمرّد الشديد الطموح للعب دوْرٍ في بلاده، في الاتجاه الذي يحقّق لها حريتَها وتقدّمَها ووحدتَها القومية.

❖ ❖ ❖

سيظلّ سهيل إدريس، الذي غادرنا قبل أقلّ من عام، واحدًا من كبار المثقفين اللبنانيين الذين أسهموا بدورٍ كبيرٍ في إحياء شأن الثقافة العربية.

بيروت